# لـيلٌ أزرق

كنتُ أنتظره كلّ َ مساء، ولا يتأخّر عن الموعد. حين توشك أجزاءُ دواخلي على الانفصال عنّي، يُسرع إلى توضيبها. كأنّه يسمع نشيجي، كأنّه يشاطرني سريري!

خيرَ مسكّ ِنٍ لنوبات الأرق، كان. في اللحظة التي ينهار فيها جسمي، متوسّ ِلاً النومَ، كان يأتي. في اللحظة التي أتكوّ َر فيها كجنينٍ ضعيفٍ في السرير، كان يأتي. في اللحظة التي أطرق فيها مؤخّ ِرةَ رأسي على الوسادة، بعد استرجاع أحداث يومي الرتيب، كان يأتي. في اللحظة التي يفرغ فيها رأسي من مخزونه العكر، كان يأتي.

سعياً إلى شغل ساعات أرقي المستفحلة، لطالما طهوتُ بعد منتصف الليل، وعزّ َلتُ غرفتي، وغسلتُ ملابسي النظيفة، وقرأتُ جريدة اليوم التالي أونلاين، وشاهدتُ أفلاماً من كلّ ِ الصنوف، كما الأجزاء الأربعة من «حريم السلطان». إلى أن يأتي.

غير أنّ «المصائب لا تأتي فرادى»، بحسب شكسبير. فقد كنتُ عاطلةً من العمل، ثمّ تلقّ َيتُ إنذاراً من مالك الشقّة بوجوب إخلائها بعد شهرين. تقطّعت بي السّ ُبلُ، فما كان لي من معينٍ غيره، غير وصلة صراخه. كان جاري، الذي لم أعرف وجهَه قطّ، مصاباً بعُصابٍ، لا يفرّ ِغ عنه إلّا الصراخ.

وكان صراخُه متقطّ ِعاً، يتكرّ َر كلحنٍ موزون: صراخاً سمعتُ فيه التعاضدَ معي؛ صراخاً كان مِطفأةَ كلّ ِ فكرةٍ سيّئةٍ عن حياتي، والألمَ الذي يعلو على ألمي، مُهوّ ِناً عليّ َ الأُمور. كأنّه

منوّ ِمٌ أحتاجُه؛ ضابطٌ كفوء لساعتي البيولوجية، وحده يقدر على أن يُسلمني إلى النوم: يلتقط يدي بحنان، ويدخلني إلى الهدأة، ولا يتأخّ َر عن وظيفته كلّ َ ليلة.

لكن، ما بالُه يغيب عنّي الآن، ويتركني فريسةً لهذا الليل البهيم؟

كدتُ أخرج إلى الشرفة وأنده: أين أنت يا مخلّ ِصي؟ كدتُ أقلّ ِد نبرةَ صراخه كي أستثيرَه. كدتُ أطرق باب جاري الآخر، الذي يشتمه حين يعلو صوتُه كلّ َ ليلة. كدتُ وكدتُ...

جافاني النومُ هذه الليلة. لم تنفع الحلقاتُ الأخيرة من «حريم السلطان». طهوتُ المعكرونة بالصلصة الحمراء، ونفضتُ الغبار عن المكتبة، من دون أن يحنّ َ عليّ َ جفناي بتغطية عينيّ. خطّطتُ أن أتوجّ َه إلى ناطور البناية للسؤال عنه. حضّرتُ سيناريو يقضي بالتحرّ ِي عنه، متّخذةً دورَ الجارة الشاكية من صراخه الليليّ. أقسمت أن أصرّ َ على مبتغاي حتى أقابله. تخيّلتُ نفسي جالسةً على أريكةٍ مقابلَ أُمّ ِه العجوز، نحتسي القهوة، وهي تتأسّف لي، حتى يطلّ َ برأسه مستفهماً عمّا يدور.

كان صراخه يوحي لي أنّه في الأربعين، سمين، ومربوع الطول. قلتُ هذه الليلة إنّ شكواي المفترضة ستضع لعالمي الليليّ أشكالاً محدّ َدةً وألواناً. وأضفت أنّه الذكرى الوحيدة الحسنة من هذا المنزل الذي أزِف موعدُ مغادرته.

حين أطلّ َ خيطُ الصباح أقسمتُ أن أذهب إلى أقرب عيادة. لا مفرّ؛ فقد غاب طبيبي الشافي من العُصاب.